دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: أعلام الفكر الإصلاحي والسياسي في الوطن العربي

الأستاذ/ د.عبد القادر خليفي

المحاضرة العاشرة: القومية العربية: مفهومها، دوافعها، ومراحل تطورها

ج2

دور النخب العربية المسيحية والمسلمة في تجذير القومية:

كانت أغلب الكتابات العربية التي ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر، قد استعملت مفهوم العروبة والقومية العربية كمترادفين، دون أن تميز بينهما، على أساس أن لكل منهما مجالين مترابطين ومتداخلين، الأول ثقافي، يتعلق بنشأة الجماعة والهوية العربية والأمة العربية والإسلامية، والثاني سياسي مختص بقيام دولة عربية على أسس إسلامية،ولم تعرف أغلب تلك الكتابات هذا التمييز بين المجالين الثقافي والسياسي لكل من العروبة والقومية العربية، لذلك تعاضدا، ولم يظهر بينهما أي قدر من الخلاف، ربما بسبب التحدي الغربي، ثم تحدى التتريك.

ويلاحظ عبد العزيز الدوري، أن الخط الإسلامي العربي، ابتداءً من الكواكبي، اتخذ وجهة عربية قومية لا ترى أي تعارض في الأصل بين الإسلام والقومية العربية، لأن العرب في غالبيتهم الساحقة، كانوا مسلمين ولأنه إلى جانب أهداف تقرير المصير، والتوق إلى الحكم الذاتي، كانت هناك أهداف وغايات أخرى، منها النهوض لحماية الإسلام، ولاستعادة أمجاده الغابرة، ويندرج ضمن التيار الإسلامي العربي، ويعبر عنه بدرجات مختلفة، فكر وعمل محمد رشيد رضا ، ومحمد كرد علي ، ومحب الدين الخطيب، وشكيب أرسلان.

ركزت معظم كتابات ساطع الحصري، على موضوع القومية العربية فكراً وممارسة، إذ قلما نجد كتاباً من كتبه لم يتناول هذا الموضوع إن لم يكن موضوعه الأساسي، وهكذا دارت

جل كتاباته حول شرح نظريته في القومية العربية والأمة العربية، والتصدي لمعارضيها من العرب وغيرهم.

وكان الرجل من المؤمنين إيماناً قطعياً بوحدة الأمة العربية وإشراق شمسها، وكان يقول عن ذلك: " أنا أعتقد أن وحدة التاريخ واللغة، ستعمل عملها في العالم العربي حتماً، وستتطور الأمور من جراء ذلك تطوراً ينتهي إلى اتحاد الأقطار العربية عاجلاً أو آجلاً ".

يمكن النظر إلى ساطع الحصري في ذلك الوقت، باعتباره المنظر الأول والأهم للقومية العربية، والتي انتقلت معه من نزعة سياسية، إلى أيديولوجيا حداثية علمانية، تقوم على رابطة اللغة والتاريخ، مع نفي أية أبعاد دينية متأثرا في ذلك بالقوميين الرومانسيين الألمان، وقد تصدى أيضا، إلى دعاة الهويات الوطنية كمحاولات إحياء الفرعونية في مصر، وما حمله كتاب طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر"، كما كان لهذا المفكر، دوره في اعتبار الامبريالية تمثل عدوا ثانيا للقومية العربية، إلى جانب عدائها مع الأطروحة الطورانية.

يرى ساطع الحصري ردا على الأصوات التي تتهم القوميين العرب بمعاداتهم للدين الإسلامي، بأن تلك الأصوات ترتكب خطأ كبيرا، فالقومية العربية علمانية، ولكنها ليست "لادينية"،ففي رده على شفيق غربال جاء في كتابه العروبة أولا: " ألاحظ أنه يربط القومية باللادينية، وينعت القوميين باللادينيين، ويجني بذلك على القومية وعلى القوميين، لأن الفكرة القومية لا تتضمن إنكار الدين ، أو استنكاره بوجه من الوجوه"، ويخلص إلى أن الإسلام يحتوي جانب ملازم ومشترك ، وجانب مستقل عن القومية العربية يحمل الصفة العالمية.

وبالمقابل، كثيراً ما يتردد في الأدبيات سواء الناقدة، أم المؤيدة للقومية العربية عن دور النخب المسيحية في بلدان المشرق، في تجذير واستدعاء الفكرة القومية، فالاتهام الأساسي، أن الفكرة القومية مستنبتة في المنطقة وأصلها غربي، وجاءت على جسر المثقفين المسيحيين في المشرق.

فمن بين تلك الأنشطة، كانت الحملة التي قام بها نجيب عازوري، حيث بدأها من باريس، حينما أسس عام 1904م عصبة الوطن العربي ligue de la patrie arabe، وكان هدفها تحرير بلاد الشام والعراق من السيطرة التركية، ونشرت العصبة حوالي خمسين نداءا موجها إلى العرب، تدعوهم إلى الثورة على الأتراك ونشر عام 1905م كتابا بالفرنسية بعنوان Le Révei de la Nation arabe يقظة الأمة العربية دعا فيه إلى فصل الولايات العربية عن الدولة العثمانية، على أن تكون الحجاز مقرا لخلافة عربية، وأن تكون الشام والعراق دولة عربية موحدة عصرية، واستطاع أن يستميل بعض الكتاب الفرنسيين المشهورين، ويكسب تعاونهم، فأصدر مجلة شهرية عنوانها الاستقلال العربي l'Indépendance arabe ظهرت في أفريل 1907م.

وبالرغم من الجهود التي بذلها عازوري، إلا أن تأثيراتها كانت ضعيفة، فقد حالت الرقابة العثمانية دون وصول نداءاته ومنشوراته إلى البلاد العربية، كما أن ظهور أنشطته بعاصمة أجنبية، وبلغة أجنبية كان أمرا أسهم في الحد من تأثيرها.

وجاءت أطروحات ميشيل عفلق، أحد أبرز قيادات حزب البعث، لتؤكد على التلاحم بين القومية العربية والدين الإسلامي، فقد أوضح بأن الفكر البعثي، وعكس ما يشاع بخصوص أطروحاته العلمانية، فإنه يذهب إلى أن مفهوم العلمانية، لا يقوم على فكرة الفصل بين الدين والدولة، ولا على الاندماج بينهما، ولكن على تكاملهما، وفي هذا الصدد يكتب: " العلمانية كانت عند ظهور الحزب، تعني الدعوات التي تعتبر القومي العربي هو الذي يتجرد من معتقداته الدينية، ويلتقي مع أخيه العربي على صعيد القومية العربية الحقوقية والرابطة الوطنية، وكان لهذا المذهب رواج كبير بين الشبيبة المثقفة، ولكننا لم نستسغه، ولم ننخدع به، واعتبرناه سطحيا وجامدا ...لذلك كان من أول من تصدى له حزبنا في بدايته، هو هذه القومية المجردة ، القومية التي تأتي من الغرب، نحن ذهبنا بكل بساطة وصراحة إلى واقعنا الحي، إلى العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام ".

مراحل القومية العربية:

لقد حاول البعض وضع معالم زمنية لتطور أطروحات الحركة القومية، منذ بدايات ظهورها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، إلى غاية نهاية القرن العشرين، من خلال رصد أنشطتها، وتتبع انتشارها فبدا أنها قد مرت بثلاث مراحل بارزة، ومن الممكن، أنها قد دخلت طورا جديدا في مرحلتها الحالية، التي لا تزال تحيط بها الضبابية.

ففي مرحلتها الأولى، التي امتدت إلى مطلع القرن الماضي، يمكن وصفها بالقومية الثقافية، حيث اتسمت قومية هذه المرحلة بالليبرالية والانفتاح، وفي هذا، يقول أنيس صايغ، إن النتاج الفكري للدعوة القومية العربية قد تميّز قبل الكواكبي ونجيب عازوري باللون الرومانسي، واعتمدت الدعوة على تبيان أمجاد العرب الماضية وإحياء تراثهم ولغتهم، والتغني بأدبهم بأسلوب حماسي زاه، وغزل بالوطن في الشعر وأسلوب مسجع وجمال لفظي في النثر، إلا أن الكواكبي وعازوري،كانا الجسر الذي عبرت منه تلك الحركة، من عاطفية القرن التاسع عشر، إلى واقعية القرن العشرين.

أما المرحلة الثانية، وتمتد طيلة النصف الأول من القرن العشرين، فهي مرحلة القومية السياسية، حيث برزت مطالب الاستقلال والتحرر، واتسمت قومية هذه المرحلة، ببداية النزوع نحو الراديكالية، حيث كان من ملامحها البارزة، الصدام العنيف بين العرب والأتراك، فيما عرف بالثورة العربية الكبرى 1916م، التي قادها الشريف حسين، وجرت

وقائعها خلال الحرب العالمية الأولى، وراهن خلالها العرب بتحريض من القوى الغربية على إمكانية تحقيق الحلم العربي، بخلق الدولة العربية.

في حين جاءت المرحلة الثالثة، الممتدة تقريبا من مطلع الخمسينيات إلى منتصف السبعينيات، حافلة بالكثير من التطورات التي أصبحت خلالها القومية العربية ذات شعبية بالغة، حيث سيطرت على الساحة السياسية والفكرية في العالم العربي مشرقا ومغربا، فقد كان من تجلياتها البارزة، التي أعقبت تشكيل جامعة الدول العربية عام 1945م، تلك الأجواء المفعمة بالتفاؤل على المستويين الرسمي والشعبي، والتي رافقت نجاح الثورة المصرية عام 1952م، وصعود المد القومي، واجتياح الناصرية لعقول وقلوب الملايين، والتي أعطت الإحساس ببلوغ القومية محطتها النهائية،المتمثلة في التتويج بالاستقلال والوحدة، خصوصا وأن الفترة شهدت موجة تحرر مست غالبية البلاد العربية، وعاشت تجربة وحدوية تعتبر الأولى من نوعها بين مصر وسوريا عام 1958م وأصبحت التنظيمات القومية حاضرة ومؤثرة في الساحة المشرقية خصوصا، على غرار حزب البعث، وحركة القوميين العرب.

ويرى البعض، بأنه اعتبارا من الربع الأخير من القرن العشرين، تعيش القومية مرحلتها الرابعة، حيث طوت خلالها سجلها الذهبي، ودخلت في مرحلة من التراجع والانحسار، بفعل متغيرات متعددة إقليمية ودولية لعل أبرزها سلسلة الصدام والصراعات التي عاشتها مختلف الأنظمة العربية، واكتساح العولمة التي تعمل جاهدة على تدمير القوميات والثقافات، لصالح أنموذج ليبيرالي استعماري في ثوب معاصر.

الفكر القومي العربي في مواجهة المعارضين:

تأتي معارضة الفكر القومي من ثلاثة اتجاهات رئيسية :

- التيار الوطني الليبرالي: عارض المد القومي مجموعة من المفكرين الليبراليين المتعلقين بالغرب، والذين يدعون إلى الحفاظ على السيادة الوطنية، بحجة وجود هوية أو هويات قطرية نابعة من حضارات مرت على الوطن العربي، واندثرت الآن من فينيقية وفرعونية وكنعانية وبابلية، ويبرز هذا التيار بأقوى صوره في مصر ولبنان على سبيل المثال، فقد رأى بعض الكتاب المصريين من أمثال أحمد لطفي السيد ،وطه حسين، ونجيب محفوظ ولويس عوض ،أن هناك اختلافات ثقافية بين مصر وبقية الدول العربية، وادّعوا بأن هناك ثقافة مصرية ولغة مصرية، وفي نفس السياق، برز بعض اللبنانيين المنادين بقومية لبنانية، مثل سعيد عقل .، والأمر ذاته حصل في سوريا مع أطروحات أنطوان سعادة.

- التيار الديني المتشدد: لاقت القومية العربية معارضة من بعض رجال الدين المسلمين، وبخاصة من التيار الوهابي، الذين شكّكوا بنوايا مؤسسي الفكر القومي، واتهموا أصحابه

بافتقارهم الأيديولوجية اللازمة للتعامل مع الإنسانية، والمجتمع سواء في بلاد الإسلام أم خارجها، واتهموا القوميين بأنهم تلقوا أفكارهم من أحضان الغرب والماسونية، وفي هذا الصدد، قاد أنور الجندي حملة على دعاة القومية العلمانية، حيث كتب:" فقد كانت حركة القومية العربية حركة علمانية، خدع بها الكثيرون أول الأمر، ثم تكشّف أنها تدعم الصهيونية، وأنها تحارب الإسلام بوصفه مجتمعا واحدا، وبوصفه منهج حياة ورسالة، وكانت القومية بهذه الصورة تحمل مفاهيم مضطربة بين الليبيرالية والاشتراكية..لقد كانت القوميات نتاج ماسوني ".

- التيار الشيوعي:يؤمن الشيوعيون بالعالمية، وفي الرؤية الماركسية، الشيوعية هي مرحلة حتمية في تاريخ البشرية، تأتي بعد مرحلة الاشتراكية، التي تقوم على أنقاض المرحلة اللا قومية، برز هذا التناقض والخلاف بين الشيوعيين والقوميين خلال عهد حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق، وفي وسورية، وخلال حكم جمال عبد الناصر في مصر .

- التيارات القومية للأقليات:اصطدمت القومية العربية منذ انطلاقها بتيارات قومية معارضة، ويتعلق الأمر بالقومية الكردية في كل من العراق وسوريا، وبالتيار البربري في بلدان المغرب العربي، وخصوصا في الجزائر.

بعض رواد الفكر القومي:

- ميشيل عفلق: 1910-1989م، مفكر وسياسي سوري، ينتمي إلى عائلة مسيحية أرثوذكسية تلقى تكوينه في الدراسات العليا بجامعة السوربون الفرنسية، يعتبر مؤسس ومنظّر حزب البعث العربي بمعية زكي الأرسوزي وصلاح الدين البيطار، اعتنق الفكر الاشتراكي، ساهم في تحقيق الوحدة المصرية السورية، وفي أواسط الستينيات اختلف مع رفاقه في سوريا، وبعد انقلاب عام 1966م، اختار الإقامة ببيروت، ثم الاستقرار بالعراق منذ عام 1975م، حيث أصبح مقربا من صدام حسين، وقد أشارت عدة شهادات إلى أنه قد ترك رسالة بخط يده مؤرخة في 12 تموز 1980م، أعلن من خلالها أنه اعتنق الإسلام، ووقعها باسم أحمد ميشيل عفلق، عثر عليها نجله إياد بين صفحات المصحف الذي كان يقرأ فيه القرآن الكريم، خلّف العديد من المقالات وكتابا بعنوان " في سبيل البعث " في خمسة مجلدات.
- زكي نجيب الأرسوزي: 1900-1968م، مفكر سوري ، من عائلة علوية، درس الفلسفة في جامعة السوربون بين سنوات 1927-1930م دون التتويج بشهادة جامعية، اشتغل في حقل التعليم الثانوي، يعتبر من أهم مؤسسي الفكر القومي العربي، يتنازع مع ميشيل عفلق مسألة خلق حزب البعث، قاد حملة للدفاع عن لواء الاسكندرونة الذي تخلت عنه فرنسا لصالح تركيا عشية الحرب العالمي الثانية، بعد

انقلاب عام 1966م بسوريا وانقسام حزب البعث إلى فرعين سوري وعراقي أصبح الأرسوزي مقربا من القيادة السورية على عهد حافظ الأسد، من مؤلفاته: - الأمة العربية –العبقرية العربية في لسانها – الجمهورية المثلى – رسائل المدنية والثقافة – رسالة الفلسفة والأخلاق – متى يكون الحكم ديمقراطيا- صوت العروبة في لواء الاسكندرونة.

- نجيب عازوري: 1873-1916م، كاتب وسياسي لبناني، تابع دراسته في العلوم السياسية بباريس تقلد منصب مساعد نائب حاكم القدس خلال الفترة 1898م-1904م، دعا إلى استقلال سوريا والأقطار العربية عن الدولة العثمانية ، تمركز نشاطه بالعاصمة الفرنسية، حيث أسس عام 1904م عصبة الوطن العربي، ثم أصدر مجلة الاستقلال العربي عام 1907م، وبعد سقوط السلطان عبد الحميد عاد إلى فلسطين ، لكنه اضطر إلى مغادرتها إلى مصر، بعد أن صدر في حقه حكم بالإعدام من طرف الاتحاديين بتهم القيام بأنشطة تمس بأمن الدولة، من أهم مؤلفاته كتاب يقظة الأمة العربية الصادر باللغة الانجليزية والمترجم إلى اللغة الفرنسية.
- محمد عزة دروزة: 1887- 1984م، مفكر وكاتب ومناضل فلسطيني، يوصف بمؤرخ القضية الفلسطينية، يعد من رموز القومية العربية البارزين، وبالرغم من عدم تمكنه من ولوج الدراسات الجامعية لأسباب عائلية، غير أنه امتلك تكوينا عصاميا رصينا، نشط في حقول علمية وأدبية عديدة حيث تعاطى التاريخ والأدب والصحافة والترجمة، وتناول التفسير، شارك في تأسيس العديد من التنظيمات الحزبية الوحدوية والاستقلالية بسوريا الكبرى على غرار جمعية العربية الفتاة، وحزب الاستقلال العربي، وهو أحد أعضاء المؤتمر السوري العام 1920م كانت له بصمات مهمة في الكفاح الفلسطيني ضد الصهيونية أنتخب لعضوية مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1961م،ترك إنتاجا فكريا غزيرا ومتنوعا، تصدرته الأعمال التاريخية، فاق الخمسين عنوانا نذكر منها: - تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار – العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي " تسعة أجزاء " – الوحدة العربية – حول الحركة العربية الحديثة " ستة أجزاء " – الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة " مجلدين " - القرآن والمبشرون – اليهود في القرآن الكريم – تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم.

//

المصادر والمراجع:

- عامر حسن فياض وعلي عباس مراد، القومية والأمة، ط1، العربي للنشر والتوزيع، د.م، 2017م.
- محمد الغزالي، حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربي، ط3، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م.
- مجموعة مؤلفين، قراءات في الفكر القومي، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1993م.
- هاني الهندي، الحركة القومية العربية في القرن العشرين، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2015م.
- جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد و إحسان عباس، ط8، دار العلم للملايين بيروت، 1987م.
- منذر معاليقي، معالم الفكر العربي في عصر النهضة العربية، دار اقرأ، بيروت، د.ت.
- علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ط5، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت 1987م.
- أنور الجندي، التيارات الوافدة، ط1، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1994م.
- محمد عمارة، التيار القومي الإسلامي، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1968م.
- https://shamela.ws/index.php/author/1327
- https://www.aljazeera.net/encyclopedia/icons/2016/12/13 /محمد-عزة-دروزة
- https://www.youm7.com/story/2017/12/30/3578074/